جزر طبرقة الثلاث

تريز فورنييه

من منزلي في مدينة نوفا طبرقة، على الضفة الاسبانية من المتوسط، في عام النعمة 75 من القرن الثامن عشر، وبينما كنت اسمع أجراس كنيستنا تقرع ، أردت أن أعود في هذه السطور الى ذكرى رفاقي في طبرقة، تلك الشطآن القصيّة في شمال اقريقيا.

تتألف جماعتنا بأغلبيتها من أهالي جنوى وليغوريا، ونعيش جميعاً على أرض مسلمة، منذ ستة قرون.

وفي الطبيعة المثيرة لجزيرة طبرقة، وهي جزيرة على شكل جمل ملتصقة بالقارة الافريقية، ادت أيادي شلة من صيادي المرجان الأحمر اللون في البحر الأبيض المتوسط، الى انشاء مدينة صغيرة في ظل قبة جرسها.

ومن الضفة الافريقية الى الجزيرة المتاخمة، هناك شعب قاسي القسمات وملون البشرة، يستجيب لصوت الله، ويجاور شعباً آخر؛ هو أيضاً قاسٍ، يضم صيادي البحر الذين يستدعون اسم الله وخصوصاً الأم العذراء الطيبة. انها الحب اللامتناهي والمعطاء، وهي لا تريد شيئاً بالمقابل. انها القديسة مريم، والدة الله، التي تحمي جزيرتنا.

هناك زمرة من ثمانية رجال الى عشرة، يرزحون تحت ثقل الرافعة الرحوية التي كانت ترفع حزم الشباك المختلطة بغصون المرجان الحادة الرأس أو بكومة من المرجان، وقد أخذ منهم التعب كما الجوع كل مأخذ، بعد بضعة أيام أمضوها في محيط البيئة البحرية؛ فيما تختلج اعماقهم بسحر الجمال عند رؤية الغصون الحمراء المفتوحة كالأيادي المتضرعة تلمع ببريق المياه، بينما يتمّ انزالها عن ظهر السفينة.

ولكن مع مطلع هذا القرن الثامن عشر، لم يعد لومليني العظيم يهتم بجماعتنا، فراح يمتنع عن الدفع. أما من ضمته جماعتنا ولم يكن يعمل في خدمة "الشركة" فلم يعد يحق له الزواج. وهكذا مُني مجتمعنا بضرر كبير.

لذلك قرر حوالي 300 شخص تشكيل جماعات بين المغاربة، اذ كانت الحياة أفضل بينهم. وقد أصبح بعضهم تجار خمر في بنزرت، باجة أو تونس.

لكن مجموعة اخرى من العائلات بضع مئات من الاشخاص أقاموا علاقات دبلوماسية مع ملك بيامون سردينيا حصلت على هبة، هي قطعة أرض من خمسة عشر كلم طولاً في جنوب شرق سردينيا: جزيرة سان بياترو حيث أسسوا مرفأ كارلوفورته، فخر أهل جنوى وفخر المرجان معا".

كانت طبرقة تعيش أنشودة اكتفائها، وراحت العائلات يقترب بعضها من بعض او تتباعد، وهي ضحية الخلافات، ما أدى ذلك الى التمزق وتراكم البغضاء والأحقاد. في نهاية المطاف، فقدنا خمسمائة عضو من جماعتنا.

وفي صباح أحد الأيام الضبابية ، التي لم تكن تبشّر بالخير، زرع يونس قواته عند أقدام القلعة.

قاومنا بشكل جيد، واستبسل كثيرون ليصبحوا شهداء في ساحة الوغى، لكننا أمسينا عبيداً.

فانسحبت مجموعة من تسعمائة شخص، عن طريق البر ثم عن طريق البحر، ليصبح أفرادها من نزلاء سجن تونس، حيث انتهى مطاف الأشخاص الاكثر فطنة في خدمة أثرياء المدينة.

وبقي ثلاثمائة شخص في مكانهم وشاركوا في بناء قلعة "الجديدة" ودفنوا تحت أساسات اسوارها.

اكثر من مئة صياد مرجان كانوا في البحر عندما هاجمهم يونس فاكتشفوا، من خلال لهيب النار الاحمر، الهجوم الذي كانت تتعرض له القلعة. وكاد الوقت يداهمهم، الا أنهم تمكنوا من الانعطاف الكامل والابحار باتجاه الجزء الفرنسي في لاكال حيث تمكنوا، بدون صعوبة، من الحلول محل صيادي المرجان المحليين؛ مع ان رئيس مدينة بون طلب من صيادي المرجان من طبرقة في لا كال أن يكونوا في خدمة حاكم تاج الجزائر. وقد تم اسر اربعة وأربعين رجلا، اضافة الى مصادرة خمسة صناديق قيّمة من المرجان.

كنت من بين التسعمائة المرسلين الى تونس. اكثر من مئة ماتوا على الطريق. فمنذ تشرين الثاني 1741، تم تجميعنا في مانوبة، مجموعة بشرية منهوكة القوى، متسخة غير قادرة على القتال، وكان حاكمها الحقيقي الوحيد هو الله. بسرعة استعدنا كرامتنا. بدأت نساؤنا بتنظيف الغسيل وإطعام الرجال والاولاد. حتى ان الطبرقيين الاحرار، اؤلئك الذين هربوا من تنكيد لومليني قبل مجيء يونس واقاموا مجتمعات حرة في بنزرت وباجة وتونس قد التحقوا بمجموعتنا في مانوبة. وكان اللقاء حاراً، فأحضروا النبيذ والطعام والمراهم. لكن باي تونس توجّس منهم شرّا" وأمهلهم أربعين يوماً لمغادرة تلك المنطقة.

انضمت مجموعة من الطبرقيين الاحرار الى جزيرة سان بياترو التي أسندت سلطتها بعد سنوات عدة الى ملك بيامون وسردينيا. ووقع الاخرون عبيداً.

وفي سان بياترو، ازدهرت جماعة الطبرقيين التي يحميها نظام من سبعة عشر مادة لملك بيامون وسردينيا. فحصلوا على الطعام خلال سنتين بعد وصولهم، وعلى بذور خلال ثلاث سنوات. كما استفادوا من استعارة الادوات الزراعية ومن حق صيد المرجان ورخصة القيام بالقرصنة والدفاع عن البلدة.

كنت قد أصبحت ممثلا" لمجتمع الطبرقيين المستعبد في تونس. وحوالي العام 1750 زارنا بعض الكهنة في السجن، فأخبرتهم بما يواجه المستعبد في المغرب من صعوبات. ولفتّ انتباههم الى بعض المتعجرفين الذين لا دين لهم ولا تقاليد، ممن يحاولون الاندماج في مجتمعنا المحلي.

في ذلك الوقت، تأثر لمصيرنا شارل الثالث، ملك اسبانيا الذي كان يرعى سياسة إعادة إعمار الاراضي الجديدة. وفي العام 68 من قرننا، تم افتداء ثلاثمائة وتسعة منا وتحريرهم.

وفي تاريخ 19 آذار 1769، وبعد خمسة ايام وخمس ليال من الابحار في وسط العاصفة، اقتربنا من الضفاف المسيحية لقرطاج. قرطاج! ارض المسيح. وما أن رسونا حتى قبّلنا تلك الارض وشكرنا القديسة العذراء، الأم، مريم الطاهرة، التي بطيبتها القصوى أمّنت لنا حمايتها. أجل. وقد أعطانا شارل الثالث جزيرة سان بابلو التي تبعد أحد عشر ميلاً عن الشاطئ. وفي عام 70 من ذلك العصر، أرسينا الحجر الأول في بناء البرج.

واليوم، في نهاية القرن الثامن عشر، وفيما كنت استمع الى ساعات تدق بها كنيسة نوفا طبرقة، أنا، جيوفاني مندريس، المواطن الحر في أرض مسيحية، أرغب في أن أشهد لذكرى اخواني في طبرقة.

تريز فورنييه مؤلفة "الزيتون الأزرق"، منشورات ج. ك. لاتيس في عام 2004 وكتاب "2028 " منشورات سكالي في عام 2006. وهي ايضاً متخصصة بالمرجان الأحمر في البحر الأبيض المتوسط وتعيش منذ اكثر من عشرين عاماً في باخرتها.

1 ثلاث جزر في البحر المتوسط تؤلف مثلثاً: طبرقة الاصلية، جزيرة سان بياترو في جنوب شرق سردينيا مع مرفأ كارلوفورته، وعلى بعد أحد عشر ميلا" من ضفاف اليكانته الاسبانية على جزيرة سان باولو القديمة، مرفأ نيوفا طبرقة.

2 عالمة آثار ورئيسة جمعية "البلد الأخضر"، تعمل مونيك لونغرستي من اجل ربط تاريخ شمال افريقيا بالضفاف الاوروبية.

نشر هذا النص بالفرنسية في مجلة "القرن الحادي والعشرون– آداب ومجتمع" في العدد رقم 10، ربيع– صيف 2007، وقد راجع الترجمة نسيب عون.